أخلاق ومعاملات

هدي النبي ﷺ مع الصغار والشباب

د.عبد المحسن بن محمد القاسم
إمام وخطيب المسجد النبوي

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرورأنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلاهادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه، وسلم تسليماًكثيراً.

أما بعد :فاتقوا الله – عباد الله – حق التقوى، وراقبوه في السر والنجوي.

أيها المسلمون: جعل الله تعالى في الحياة قوة بين ضعفين؛ وتلك القوة هي الحياة والثمرة في الآخرة، وسنّ الشباب هو القوة بعد الضعف، فيه توقد العزيمة وعلو الهمة، ونفعهم عبر العصور كبير، قال قوم إبراهيم عليه السلام عنه: ﴿سَمِعْنَا فَتَى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٠]، وقال الله عن يحيى عليه السلام: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢] ، قال ابن كثير رحمه الله: «أي:الفهم والعلم والجد والعزم، والإقبال على الخير، والإكباب عليه، والاجتهاد فيه وهو صغير حدث السنّ»، وقال تعالي عن أصحاب الكهف: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَـٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣]، قال ابن كثير الله رحمه الله: ذكر تعالى أنهم فتية – وهم الشباب –، وهم أقبل للحق وأهدى للسبيل من الشيوخ؛ ولهذا كان أكثر المستجيبين لله ولرسوله ﷺ شبابا، ومن السبعة الذين يظلهم

الله في ظله يوم القيامة : «شاب نشأ في عبادة الله» (متفق عليه).

وسيرة نبيّنا محمد ﷺ مع صغار الصحابة وشبابهم أعظم سيرة؛ تواضع لهم وجالسهم وزارهم وعلّمهم ورفع هممهم، فخرج منهم أعظم جيل.

فمن تواضعه عليه السلام: إذا مرّ بصبيان سلّم عليهم، (متفق عليه)، قال ابن بطال رحمه الله: سلام النبي ﷺ على الصبيان من خلقه العظيم وأدبه الشريف وتواضعه.

وكان النبي شديد الحرص على تعليمهم، قال جندب بن عبد الله رضي الله عنه: كنا مع النبي ﷺ ونحن فتيان حزاورة – أي: قاربنا البلوغ –، فتعلّمنا الإيمان قبل أن نتعلّم القرآن، ثم تعلّمنا القرآن فازددنا به إيماناً» (رواه ابن ماجه: ٦١، وصححه الألباني).

وكان يغرس العقيدة في نفوسهم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كنت خلف رسول الله ﷺ يوما، فقال: يا غلام! إني أعلمك كلمات؛ احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذااستعنت فاستعن بالله... الحديث (رواه الترمذي: ٢٥١٦، وصححه الألباني). ويتلطّف في تعليمهم بتنوع طرقه:

فأحياناً يأخذ بأيديهم، قال معاذ رضي الله عنه: أخذ بيدي النبي ﷺ فقال: إني أحبّك، قلت: وأنا والله أحبّك، قال: ألا أعلمك كلمات تقولها في دبر كل صلاتك؟ قلت: نعم، قال: قل: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك» (رواه البخاري في الأدب المفرد).

وأحيانًا يضع كفّ أحدهم بين كفّيه، قال ابن مسعود رضي الله عنه: وعلّمني رسول الله ﷺ – وكفّي بين كفّيه – التشهد، كما يعلّمني السورة من القرآن» (متفق عليه).

وأحياناً يأخذ بمنكب أحدهم، قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي، فقال: كن في الدنيا كأنّك غريب أو عابر سبيل

(رواه البخاري).

ولرأفته في التعليم كانوا يأتون إليه ويقولون له: "علّمنا"، قال ابن مسعود رضي الله عنه: يا رسول الله! علّمني من هذا القول - أي: من القرآن -، قال: فمسح رأسي وقال: إنّك غلامٌ معلّم: (رواه أحمد) [إسناده صحيح]؛فكان أحد قرّاء هذه الأمة.

وكان يصبر على تعليمهم، قال جابر رضي الله عنه: «كان رسول الله ﷺ يعلّمنا الاستخارة في الأمور كلها، كما يعلّمنا السورة من القرآن: (رواه البخاري).

ومن تؤدده لهم: كان يردفهم خلفه إذا ركب دابّته مع وجود كبار الصحابة، فأردف أسامة رضي الله عنه من عرفة إلى المزدلفة، ثم أردف الفضل بن العباس رضي الله عنهما من المزدلفة إلى منىً (متفق عليه).

وكان يحثّهم على العبادة، قال لعبد الله عمر رضي الله عنهما - وهويومئذ غلام -: «نعم الرجل عبد الله، لو كان يصلي من الليل؛ فكان عبد الله بعد ذلك لا ينام من الليل إلا قليلًا (متفق عليه).

وكان يوجههم بألطف عبارة، قال لخريم الأسدي رضي الله عنه: نعم الرجل أنت يا خُريم! لولا خَلّتان فيك، قلت: وما هما يا رسول الله؟ قال: إسبالك إزارك، وإرخاؤك شعرك، (رواه أحمد) [حديث حسن بطرقه].

وكان يشفق عليهم ويسألهم عن أهليهم، قال مالك بن الحويرث رضي الله عنه: أتينا النبيﷺ ونحن شببة - أي: شباب - متقاربون، فأقمنا عنده عشرين ليلة، فظنّ أنّا اشتقنا أهلنا، وسألنا عمن تركنا في أهلنا؛ فأخبرناه، وكان رفيقاً رحيماً، فقال: ارجعوا إلى أهليكم فعلّموهم، ومروهم، وصلّوا كما رأيتموني أصلّي(متفق عليه).

والنبي ﷺ وهو الرجل العظيم كان يمازح الصبيان، قال محمود بن الربيع رضي الله عنه: «عقلت من النبي مجّة مجّها في وجهي وأنا ابن خمس سنين

- أي: أدخل النبيﷺ ماءً في فمه، ثم أخرجه على وجه الصبي على سبيل المازحة -- (متفق عليه).

بل ويسألهم عن طيورهم ويكنيهم ملاطفةً لهم، قال أنس رضي الله عنه: إن كان النبي ﷺ ليخالطنا حتى يقول لأخ لي صغير: يا أبا عمير! مافعل النغير؟ - وهو طير صغير - (متفق عليه)، قال ابن بطال رحمه الله: كان ﷺ يمازح الصبيان ويداعبهم ليقتدى به في ذلك، وفي ممازحته للصبيان تذليل النفس على التواضع ونفي التكبّر عنها.

وكان يأخذهم معه بيده إلى بيته لإطعامهم، قال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، «أخذ رسول اللهﷺ بيدي ذات يوم إلى منزله، فأخرج إليه فلقًا - أي: كسرًا - من خبزه (رواه مسلم).

وإذا دخلوا بيته يأذن لـهـم بسماع حديث بيته، قال ابن مسعود رضي الله عنه: «قال لي رسول الله ﷺ: إذنك عليّ أن يرفع الحجاب أي: إذا رأيت ستار الباب مرفوعاً فادخل من غير إذن بالقول- وأن تستمع سوادي - أي: سرّي - حتى أنهاك - أي: عن الدخول -»(رواه مسلم).

وكان يأكل معهم، ويعلّمهم آداب الطعام، قال عمر بن أبي سلمة رضي الله عنهما: كنت في حجر رسول الله ﷺ - أي: في حضانته- وكانت يدي تطيش في الصحفة- أي: تتحرّك وتمتدّ إلى نواحيها- فقال لي: يا غلام! سمّ الله، وكل بيمينك، وكل ممّا يليك (متفق عليه).

ويجيب دعوة صغار أصحابه وشبابهم، قال عبد الله بن بسرالمازنّي رضي الله عنهما: «بعثني أبي إلى رسول اللهﷺ أدعوه إلى طعام؛ فجاء معي، فلما دنوت من المنزل أسرعت، فأعلمت أبويّ، فخرجا، فتلقيا رسول الله ﷺ ورحّبا به (رواه أحمد) [إسناده صحيح].

وإذا بلغه مرض أحد صغار أصحابه عاده، قال زيد بن أرقم رضي الله عنه: أصابني رمد - وهو داء يصيب العين - فعادني النبيﷺ (رواه

أحمد) [إسناده حسن].

وكان يستشرف نبوغ كل واحد منهم، فيوجّهه بما ينفع نفسه وأمّته؛ «لمّا قدم ﷺ المدينة رأي زيد بن ثابت – وهو دون الخامسة عشرة – يحسن الكتابة، فجعله من كتّاب الوحي، وأبصر فيه ذكاء فطلب منه تعلّم لغة اليهود؛ ليترجم له ما يكتب بلسانهم، قال زيد رضي الله عنه: فتعلّمت له كتابهم، ما مرّت بي خمس عشرة ليلة حتى حذقته، وكنت أقرأ له كتبهم إذا كتبوا إليه، وأجيب عنه إذا كتب» (رواه أحمد) [إسناده حسن].

وحثّ على تعلّم كتاب الله من صغار أصحابه، فقال: خذوا القرآن من أربعة: من ابن أم عبد – أي: ابن مسعود ، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب، وسالم مولى أبي حذيفة، (متفق عليه).

وكان يثني عليهم ويظهر مكانتهم؛ سمع قراءة سالم مولى أبي حذيفة رضي الله عنه– وهو غلام صغير، حسن الصوت بالقرآن –، فقال: «الحمد لله الذي جعل في أمّتي مثل هذا!» (رواه ابن ماجه وصححه الألباني)، ورأى من معاذ رضي الله عنه فقهًا، فقال: «وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل»(رواه أحمد) [إسناده صحيح].

وكان يظهر محبته لصغار أصحابه وشبابهم، ويخاطبهم بذلك ليبيّن لهم ولغيرهم منزلتهم عنده، قال عن زيد بن حارثة رضي الله عنه: إن كان لمن أحبّ الناس إليّ، وإن هذا – أي: ابنه أسامة – لمن أحب الناس إليّ بعده (متفق عليه)، ورأى صبيان الأنصار ونساءهم مقبلين فقال :«اللهم أنتم من أحب الناس إليّ (متفق عليه).

وكان يدعو لصغار الصحابة بخيري الدنيا والآخرة محبة لهم وإكراماً، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ضمّني رسول الله ﷺ وقال: اللهم علّمه الكتاب» (رواه البخاري)، ودعا لأنس رضي الله عنه بقوله: «اللهم أكثرماله وولده، وبارك له فيه(متفق عليه).

وكان يخصّهم بأسرار دون غيرهم ثقة فيهم، قال أنس رضي الله عنه: أسرّ إليّ نبي الله ﷺ سرًّا، فما أخبرت به أحدًا بعد، ولقد سألتني عنه أم سليم - وهي أمه - فما أخبرتها به(متفق عليه).

وكان يعهد إليهم الأمور العظام، ولّى عَتّاب بن أَسِيد رضي الله عنه مكة، فأقام الموسم وحجّ بالمسلمين سنة ثمانٍ، وهو دون العشرين عاماً.

وأكثر من روى حديث النبي ﷺ بعد أبي هريرة رضي الله عنه خمسة: أنس وجابر وابن عباس وابن عمر وعائشة رضي الله عنهم، وكلهم من صغار الصحابة.

وكان ﷺ يستشير صغارهم فيما يخصّه من الأمور العظام؛ ففي حادثة الإفك أرسل إلى علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يستشيرهما (متفق عليه).

وفي مجلسه ﷺ يوقّرهم ويعلي من شأنهم مع وجود كبارالصحابة؛ «أتي رسول الله ﷺ بشراب؛ فشرب منه، وعن يمينه غلام وعن يساره أشياخ، فقال للغلام: أتأذن لي أن أعطي هؤلاء؟ فقالا للغلام: لا والله! لا أوثر بنصيبي منك أحداً، فتلّه - أي: وضعه- رسول الله ﷺ في يده (متفق عليه).

وكان ﷺ يستعظم المصيبة إذا كانت في الصغار والشباب، قال أنس رضي الله عنه: كان شباب من الأنصار سبعين رجلاً يسمّون القرّاء، كانوا يكونون في المسجد، فبعثهم النبي ﷺ جميعاً؛ فأصيبوا يوم بئر معونة، فدعا النبي ﷺ علي قتلتهم خمسة عشر يوماً في صلاة الغداة» (رواه أحمد، وأصله في الصحيحين).

وعامة من تقدّم إسلامه ونصر النبي ﷺ في أول أمره أعمارهم مابين الثامنة إلى الثلاثة عشر عامًا؛ كعلي وطلحة والزبير رضي الله عنهم.

ولما همّت قريش إخراج النبي ﷺ من مكة جاءه الأنصار من المدينة - ونصفهم من الصغار - فبايعوه عند العقبة مرتين.

وأرسل ﷺ إلى المدينة - شاباً صغيراً بين يدي هجرته، يعلّم أهلها القرآن ويفقّههم في الدين - مصعب بن عمير، فنزل على -شاب مثله- سعد بن زرارة؛ فآواه.

ولّما عزم النبي ﷺ على الهجرة أمر علي بن أبي طالب- وهو شاب - أن يتخلّف عن الهجرة حتى يؤدي عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده للناس.

وفي طريق هجرتهﷺ آزره الصغار والشباب؛ فكان يأتيه وهو في الغار مع صاحبه عبد الله بن أبي بكر، ينقل إليهما خبر أهل مكة، قالت عائشة رضي الله عنها: وهو غلام شاب، ثقفٌ لقنٌ - أي: فطن سريع الفهم -- (رواه البخاري).

وأسماء رضي الله عنها كانت جارية صغيرة تحمل إليهما الطعام والشراب.

ولّما وصل إلى المدينة استقبله غلمانها فرحًا به، قال البراء رضي الله عنه: «وتفرّق الغلمان والخدم في الطرق، ينادون: يا محمد! يا رسول الله! يا محمد! يا رسول الله!» (رواه مسلم).

ولّما استقرّ في المدينة هاجر أصحاب النبي ﷺ من مكة إلى المدينة وكانوا شباباً، قال أنس رضي الله عنه: قدم النبي ﷺ - أي: المدينة- وليس في أصحابه أشمط - أي: من شاب شعره - غير أبي بكر (رواه البخاري).

وفي غزوة بدر ندب النبي ﷺ أصحابه إلى القتال، قال ابن عباس رضي الله عنهما: فتسارع إليه الشبّان (رواه ابن حبان)، ويوم حنين خرج شبّان الصحابة من غير سلاح.

وقبل موته ﷺ جيّش جيشاً عظيماً لغزو الروم في الشام، وأمّرعليهم أسامة بن زيد رضي الله عنه وعمره سبعة عشر عاماً.

ولمعاملة النبي ﷺ الفريدة للصغار أحبّوه حبًّا جمًّا؛ فكان إذا قدم من سفر خرجوا من المدينة لاستقباله، قال السائب رضي الله عنه: «خرجت مع الصبيان نتلقّى النبي ﷺ إلى ثنية الوداع

مقدمه من غزوة تبوك (رواه البخاري)، وكانوا يبيتون مع النبي ﷺ في بيته، قال ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه: كنت أبيت مع رسول الله به، فأتيته بوضوئه وحاجته، فقال لي: سل، فقلت: أسألك مرافقتك في الجنّة: (رواه مسلم).

وإذا ناموا في بيته يضع أحدهم رأسه عند رأس النبيﷺ على وسادته، «بات ابن عباس رضي الله عنهما ليلةً عند ميمونة -أم المؤمنين-، وهي خالته، قال: فاضطجعت في عرض الوسادة، واضطجع رسول الله ﷺ وأهله في طولها». (متفق عليه).

أيّها المسلمون:

فكلما علت أخلاق العظماء تواضعت للصبيان. والصغير مجبول على محبة من دنا منه وعلّمه، وإدراكهم في الحفظ والفهم قد يفوق الكبار.

ودين الإسلام موافق لفطرتهم؛ يحبّونه ويحبّون آدابه وشرائعه وهدي النبي ﷺ تنشئتهم عليه، واحتقارهم والإعراض عنهم لا يوافق شيم العقلاء.

هدي رسول اللهﷺ أكمل الهدي، وطريقته أكمل الطرق، ومعاملته أرفع المعاملة، وصغار اليوم هم أمل الأمّة وعمادها، ومن ابتغى الخير للناشئة فليلزم هدي النبيﷺ في تعامله معهم.

وبعنايته ﷺ صغار أصحابه وشبابهم آل إليهم العلم، وانتفعت الأمة بهم.

ومن توفيق الله للصبيان تيسير عالم لهم يعلّمهم دينهم، ويؤدّبهم بأخلاق الأنبياء عليهم السلام وعلى أوليائهم أن يسعوا لهم بذلك.

***